

الرسالة الثانية

ربانية التعليم

بقلم

الدكتور / عادل الشويخ

obeikandi.com

ربانية التعليم

• تمهيد •

إن (ربانية التعليم) أحد أهم المفاهيم التربوية فى عملية التدريس عموماً، وفى مجال التعليم والتربية الدعوية بشكل خاص ويعنى هذا المفهوم أن عملية التعليم يجب أن تكون بحكمة، وتتضمن التدرج فى تدريس صلب العلم قبل فروعه، ولا يقوم بهذا العمل إلا الفقهاء الحكماء.. والمربون الوعاة.

وربانية التعليم لا تتم بتبليغ الفقه المجرّد فقط، وإنما باتخاذ الوسائل الحكيمة، ووفق أفضلها أيضاً، ومنها: إعطاء صغار العلم قبل كبار، وقد أخذ هذا المعنى التربوى اسمه من أحد معانيه الخاصة الواردة فى قول ابن عباس رضي الله عنهما كما فى كتاب العلم من صحيح البخارى: (كونوا ربانيين حكماء فقهاء.. ويقال: الربانى الذى يربى بصغار العلم قبل كبار).

وصفة الربانية قد تكون نسبة إلى (الرب) عز وجل أو إلى (التربية). وإطلاقها على هذا المفهوم التربوى من باب إطلاق الخاص على العام.

وقد سبق الإسلام - بهذا الإدراك الواعى - أحد أهم مسائل وأسس التربية المعاصرة.

ألا ترى أن المناهج فى المراحل الدراسية المتعددة يسبق بعضها بعضاً، والمسابقات الجامعية يبنى بعضها على بعض، ولا يسبق تدريس بعض الأجزاء أجزاء أخرى! فكل فن ترتبط أجزاؤه وفق نسق منطقى. والعلم بشموليته: تتسق فنونه بعضها ببعض، بحيث لا يتقدم المبهم الدقيق على الواضح السهل. ولا النتيجة على المقدمة، ولا الأهم على المهم. ولا يتقدم صعب على سهل، وغير ذلك، وقد أوضح ابن حجر شمولية معنى صغار العلم وكباره فقال: (والمراد بصغار العلم ما وضح من مسأله. وبكباره ما دقّ منها. وقيل: يعلمهم جزئياته قبل كلياته، أو فروعه قبل أصوله، أو مقدماته قبل مقاصده) ^(١).

إن الذى يحدو إلى توضيح هذا المعنى التربوى فى مجال العمل الإسلامى الدعوى - رغم معرفته فى عالم التدريس والتربية المنهجية - هو ما يظهر أحياناً من محاولة بعض الدعاة والمربين أو الخطباء تزويد الناشئة أو من هم دون المستويات

(١) فتح البارى: ١ / ١٦٢.

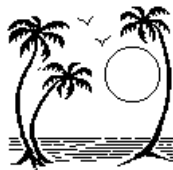
الملائمة بكمية هائلة من المعلومات الشرعية أو الدعوية. أو اختيار ما لا يناسبهم من ناحية المعانى، وقد يكون الأمر فى غالب الأحوال رغبة المربين بالحصول السريع على طبقة متقدمة من الدعاة، أو تبليغ أكبر كمية من المعلومات بأقصر الطرق، وقد تكون - فى أحيان قليلة كما نرجو - بسبب حب المربى لنوع من الواجهة والرئاسة، فيحب الظهور بمظهر العالم المتمكن، أو لأجل مباهاة الأقران، فيسارع إلى تبليغ المعلومات الوافرة والمتقدمة.

كما أن الناشئة أو طبقات الدعاة المختلفة هى الأخرى تتطلع إلى الاستزاده من كثرة المعلومات والتشوق إليها دون الاستفادة العميقة منها، أو دون امتلاك الاستعداد الكافى لهضمها وإدراكها وتشوفهم - بتجاوز العلوم الأساسية - لمعرفة غيرها من شوارد المعرفة، أو خصوصيات المسائل، وقد يكون الدافع لهؤلاء - فى بعض الأحيان - إخلاصهم للدعوة ومحاولة الارتقاء السريع بمستواهم، كما قد يكون أيضاً - فى أحيان أخرى - محاولة منهم للاستشراف الشخصى للتصدر، أو حباً فى الاستطلاع الفكرى، أو طمعاً فى التدخل بما لا يعنيه من أجل إشباع غريزة التطلع.

وقد لا يقتصر الأمر على الشيوخ والمربين من جهة، أو الجدد وطبقات الدعاة من جهة أخرى بل قد يتجاوز الأمر للحديث بكبار العلم ومهماته - أحيانا - إلى المجالات العامة، والمنتديات المفتوحة وأمام جماهير المسلمين، بل وخارج إطار العاملين للإسلام.

إن الالتزام بهذا المفهوم يجب أن يكون واضحاً، ومقرراً وسط الجماعة المؤمنة، فهو ليس كتماً للعلم، ولا محاولة للتمييز بين طبقات الدعاة، وما هو بالاستعلاء على الناس، بل هو منهج ربانى يخدم المصلحة الدعوية ويقى من لأواء الفتن، ومصارع المحن، ويحقق قواعد الاستقرار الإدارى للجماعات الإسلامية.

ولابد من التوضيح هنا أن ما نقله ابن حجر فى كلامه السابق حول (الفروع قبل الأصول) ليست على إطلاقها ولهذا فسوف توضح فيما بعد إن شاء الله تعالى.



مبررات ربانية التعليم

قبل الشروع بالشرح التفصيلي لمسائل ربانية التعليم، نوضح أهم مبررات هذا المفهوم:

• من أجل عدم الوقوع فى المفسدة لقصر الفهم •

وقد امتنع الرسول ﷺ عن هدم الكعبة ثم بنائها حتى لا تظن قريش أنه بناها لينفرد بالفخر عليهم، فترك المصلحة خوفاً من الوقوع فى المفسدة، واعتبر حديثه - هذا - من أعمدة أدلة الموازنة بين المصالح، واستنبط منه البخارى مفهوم ربانية التعليم، ولا بد من ضرورة منع بعض العلم خوفاً من الوقوع بما هو أشد لقصور الفهم عن ذلك.

فترجم البخارى لحديث (عدم هدم الكعبة ثم بنائها) بقوله (باب: من ترك بعض الاختيار مخافة أن يقصر فهم بعض الناس عنه، فيقعوا فى أشد منه)^(١).

• عدم إضاعة العلم •

إذ إن كل فن له أوائل تقود إلى أواخره، ولهذا فلا بد من أخذ الأوائل قبل الأواخر، والفروع قبل الأصول، وذلك فى العلم الواحد، والفن الواحد، إذا ما كانت كل من الفروع والأصول على مستوى واحد من صعوبة الفهم، وعلى درجة واحدة من الأهمية، أما عكس العملية فيقود إلى إضاعة العلم.

(... واعلم أن للعلوم أوائل تؤدي إلى أواخرها، ومداخل تفضى إلى حقائقها، فليبتدئ طالب العلم بأوائرها، ليتهاي إلى أواخرها، وبمداخلها ليفضى إلى حقائقها، ولا يطلب الآخر قبل الأول، ولا الحقيقة قبل المدخل، فلا يدرك الآخر، ولا يعرف الحقيقة، لأن البناء على غير أسس لا يبنى والثمر من غير غرس لا يجنى)^(٢).

أما إذا كانت الأصول أهم من الفروع فالابتداء بها أولى، كأمر العقيدة وصفات الخالق وأسمائه، فهى أولى من إدراك مسائل الفقه وأمر الخلاف، وكذلك إذا كانت أصول فن ما أسهل من فروعه، فالابتداء بها أجدى وأنفع ثم ينتقل إلى التفصيلات الأصعب بعد ذلك.

وبذلك يتحول - فى بعض الأحوال - إلى ضرورة الأخذ بالأصول قبل الفروع،

(٢) أدب الدنيا والدين للماوردى / ٥٥.

(١) فتح البارى: ١ / ٢٢٤.

وفى كل من الحالتين يكون الاستبدال إضاعة للعلم، وتجاوزاً لمفهوم الربانية... وسيأتى مزيد من إيضاح لذلك.

• عدم التنظير من العلم والتخبط به •

ولهذا المعنى أشار الغزالي، واعتبرها من وظائف المربي والمعلم، فحدد ذلك بقوله: (... أن يقتصر بالمتعلم على قدر فهمه فلا يلقي إليه مالا يبلغه عقله، فينفره، أو يخبط عليه عقله... ولذلك قيل: كل لكل عبد بمعيار عقله، وزن له بميزان فهمه، حتى تسلم منه وينتفع بك، وإلا وقع الإنكار لتفاوت المعيار) ^(١).

إذ إن طالب العلم إذا ما أخذ علماً لا يستوعبه، أو أن حدود تجربته الحيوية وطبيعته النفسية لا تستطيع إدراكه فإنه يؤدي به إلى عدم توازنه، بل وإلى انحرافه، ولذلك فإن الفلسفة والمناظرات الكلامية أو بعض أمور المنطق قادت بعض طلبة العلم إلى الشطط، بل إلى الانحراف عندما لم يتم بناؤهم الفكري ولم يستكملوا علم الشرع، كما حصل لأمثال ابن سينا وابن رشد، مما اضطر بعض العلماء - لوجود هذه الظاهرة - إلى تحريم دراسة المنطق، كابن الصلاح وغيره، بينما صار المنطق والكلام سلاحاً ضد أعداء الإسلام بيد جهابذة العلماء كابن تيمية والغزالي - **رحمهما الله تعالى** -، ولذلك فقد يكون فى معرفة القليل من الجاهلية انحراف أو ضلال، وفى معرفة الكثير منها - عند فهم القواعد والأصول - مزيد إيمان و يقين.

• عدم الوقوع فى الترف الفكرى •

إذ إن تعلم المبتدئ جملة من العلوم التى لا يعمل بها، ولا يستفاد منها، تجعل منه شخصاً نظرياً، فتؤدى الظاهرة عند توسعها إلى عيب كبير فى صفوف الدعاة، إذ يتحول الداعية عندئذ إلى أشبه بباحث نظرى يبحث فى الكتب وحسب، فيفلسف الأحداث دون استيعاب، وبالتالي يحصل الفتور فى العمل، والضعف فى الإيمان، وتصبح بضاعته مجموعة من الأحاديث النظرية والمجادلات، وتكون متعته فى المباحث النظرية والمطالعة المجردة، دون تحمل عبء المشاكل، ومشقة المخالطة، ولو ظل على هذا لهان الأمر، بل قد يتحول الداعية - كما تشهد التجارب - إلى كاتب يبرر الانحراف، ويفلسف الأخطاء، ويدافع عن الفتن، وينقد العمل الجاد، بل وقد

(١) إحياء علوم الدين: ١ / ٥٧.

يكبر الأمر الصغير، ويهون الشأن الكبير، وكل ذلك لأنه أسير تأملاته النظرية، وثقافته غير المتوازنة.

• الأمان من الخطأ •

فإن كثرة الحديث تورد كثرة الخطأ والالتباس، وفي القلة أمان من ذلك (وكثرة الكلام ينسى بعضه بعضاً)، وقد قالت العرب: (من كثر كلامه كثر سقطه)، كما أورد مسلم في مقدمة صحيحه - قول الرسول ﷺ: «كفى بالمرء كذباً أن يحدث بكل ما سمع»..

وقد علق الإمام النووي على ذلك بقوله عن هذا الحديث والآثار التي في الباب: (ففيها الزجر عن التحديث بكل ما سمع الإنسان، فإنه يسمع في العادة الصدق والكذب، فإذا حدث بكل ما سمع فقد كذب، لإخباره بما لم يكن.....).

وكذلك: (إنه إذا حدث بكل ما سمع كثر الخطأ في روايته، فترك الاعتماد عليه والأخذ عنه.....) (١).

• الابتداع في الدين •

ما دام الأخذ بهذا المفهوم مما نهى عنه الشارع، فإن عدم الأخذ به من الابتداع في الدين، لمخالفته الهدى النبوي، وقد ذكر ذلك الشاطبي ضمن أنواع الابتداع فقال: (...). ومن ذلك التحدث مع العوام بما لا تفهمه ولا تعقل معناه، فإنه من باب وضع الحكمة في غير موضعها، فسامعها إما أن يفهمها على غير وجهها - وهو الغالب -، وهو فتنة تؤدي إلى التكذيب بالحق، والعمل بالباطل. إما لا يفهم منها شيئاً، وهو أسلم، ولكن المتحدث لم يعط الحكمة حقها من الصون، بل صار في التحدث بها كالعابث بنعمة الله... (٢).

• انفضاض الناس •

إن الإكثار من الحديث، وما قد يجره من ملل على السامع يجعل الناس تاركين للعلم وراءهم، وبالتالي يفقد العالم هيئته.

(٢) الاعتصام للشاطبي: ١٣/ ٢.

(١) شرح صحيح مسلم: ٧٥/ ١.

والعلم كعروض التجارة، تزداد الرغبة فيها عند القلة، وليس المقصود حجب الناس عن العلم، وإنما من أجل زيادة حرصهم عليه، حتى لا يكون من كثرتهم وإشاعته تزهيداً للناس فيه، وابتعادهم عنه. وفي حكمة لقمان قوله: (إن العالم الحكيم يدعو الناس إلى علمه بالصمت والوقار، وإن العالم الآخرق يطرد الناس عن علمه بالهذر والإكثار) (١).

• عدم التوازن بين العلم والعمل •

وليعلم أن عدم التوازن بين العلم والعمل مفسدة أيضاً. وهى كنمو أحد جناحي الطائر وضمور الجناح الآخر، فيكون الصعود والتحليق إيذاناً بالسقوط من مرتفع أعلى، فيؤدى إلى احتمالية أكبر فى أن يلقي حتفه ويتهشم، وتدل تجارب الحكماء قديما وحديثا على كراهية عدم التوازن بين المنطق والعقل، وقد قال - من قبل - سليمان بن عبد الملك: (زيادة منطق على عقل خدعة، وزيادة عقل على منطق هُجْنة) (٢).

بل إن زيادة المنطق، وحلاوة اللسان، وعذوبة العلم نهايتهن مريعة إذا لم يزينها عقل، وتحدها تجارب، ويدركها عقل واعٍ يحدد مواقع الكلم، ومواطن اللفظ، فيختار الحديث المناسب للمجالس المناسبة، ويتتقى أطايب الكلام على قدر الرجال... وقد قال حكيم العرب الأخنف بن قيس - رحمه الله -: (حتف الرجل مخبوء تحت لسانه) (٣).

وحتى يصبح مفهوم الربانية واضحاً، لابد من التوسع فى ذكر بعض آفاق هذا المفهوم، وما قد يتضمنه، من تقديم بعض العلوم على بعض، أو أجزاء فن ما دون أجزائه الأخرى، أو تقديم خاصية قبل غيرها، وما قد يرتبط بتدريس العلم وتعليم المعرفة من أمور ملازمة.



(٢) عيون الأخبار ٢ / ١٢٢.

(١) عيون الأخبار: ٢ / ١١٢.

(٣) عيون الأخبار: ١ / ٣٣٠، ٣٣١.

آفاق الربانية

ومن هذه الآفاق:

١- الجزئيات قبل الكليات

والمقصود بهذا ما ورد في كتب الفقه من مسائل يطالب المكلف بفعلها أو تركها، إيجاباً أو استحباباً، وقد أوردت الشريعة أدلة تلك المسائل، ثم جاء العلماء بعد ذلك، واستنبطوا من هذه الجزئيات مجموعة قواعد كلية قد تتخلف آحاد الجزئيات عنها، وصارت معرفة هذه الكليات طريقاً لضبط الجزئيات، ولكنها تظل غير صالحة لقيام التكليف عليها، فالمسلم مكلف بفروع الشريعة، وهى التى سيحاسب عليها فى الآخرة، ومعرفتها - إذن - لا بد منها للمكلفين ابتداءً، أما الكليات فلا بد للعالم من إدراكها وفهمها بعد فهم الجزئيات التى قادت إلى التعقيد كى يمكن له التدرب على الاستنباط، والقياس، ثم الاجتهاد فى الفروع المستحدثة.

وكذلك فإن الشريعة لها مقدمات لا بد للمكلف من معرفتها والعمل بها، ثم يحاسب بمقتضاها، ولكن من خلال الاستقراء لمقدمات الشريعة يتبين أن لها مقاصد وحكماً وعللاً، وأن الله تعالى يشرع لحكمة وعلة، والشريعة تحفظ العقل والمال والنفس وغير ذلك من مصالح العباد فى المعاش والمعاد، ولكن المكلف يبقى محاسباً على المقدمات دون المقاصد، ويبقى التكليف مبنيًا عليه حتى دون معرفة المقاصد، بينما تظل معرفة المقاصد جزءاً من علم المجتهد للبناء عليه، والقياس وفقهه، ثم يكون الاجتهاد وفق مقاصد الشريعة، وكذلك يمكن للمكلف معرفة المقاصد والعلل زيادة له فى يقينه، وتعميقاً فى إدراكه.

ونضرب مثلاً على هذا المنهج أيضاً بأصول الفقه الذى دُوِّن كعلم تال للفقه، فالفقه الحنفى على وجه الخصوص بنى جملة وتفصيلاً على فروع الفقه، فأصبح رغم أصوليته تابعاً للفقه، وأصول المذاهب الثلاثة الأخرى رغم توسعها وفقاً لمناهج علم الكلام إلا أنها لم تنضج إلا بواسطة تطبيق الفروع الفقهية المستندة على الأدلة، وبقي الأصول علماً لا بد منه للمجتهدين بينما الفقه علم سائر المكلفين، وقواعد الفقه ما هى إلا مثل آخر إذ إنه لم يتبلور إلا فى القرن السابع، واستفاد منه العلماء، ولكن معرفة الفروع تظل سابقة عليه فى ضرورة تعلمها كما كانت سابقة عليه زماناً، رغم أنها تجمع العديد من الفروع، وتسهل حفظها وإدراكها.

ولهذا فإن المقدمات قبل المقاصد، والجزئيات قبل الكليات فى أمور الشريعة عموماً، وفى مسائل الفقه خصوصاً، وكلا الأمرين داخلان فى قاعدة الفروع قبل الأصول. أما فيما سوى ذلك ؛ لو كان الأصل صلب العلم والفرع من هوامشه، أو أن الأصل يبنى عليه الثواب والعقاب، والفرع تبع له، فإن القاعدة الأصلية تظل (الأصول قبل الفروع)، كما ستبينه القاعدة التالية :

٢- الأصول قبل الفروع

وهذا مبدأ واضح وضرورى، فتعلم أصول الشريعة لابد منه قبل فروعها، وأرفع الأصول: أصل العقيدة، كمعرفة البارى تعالى وأسمائه وصفاته، والإيمان به وبأنبيائه ورسله، ودون معرفة ذلك فالعمل يصيبه الإحباط، ولذلك قال السلف: العلم قبل العمل. وترجم الإمام البخارى لهذا المعنى فقال: (باب: العلم قبل القول والعمل، لقول الله تعالى: ﴿ فاعلم أنه لا إله إلا الله ﴾ فبدأ بالعلم، وأن العلماء هم ورثة الأنبياء) (١).

بينما الفقه وفروع الشريعة تبع لذلك، وكذلك فى الفن الواحد، ففى الفقه مثلاً معرفة ما تصح به العبادة أولى بالمعرفة من سنن العبادات وزوائدها، وهكذا.

ولهذا نرى بعض الصحابة استشهد فى المعارك، وهم لا يعرفون بعد من جزئيات الشريعة إلا معنى (لا إله إلا الله)، كما أن كلمة التوحيد - كما يحصل فى الجهاد - تعصم دم المرء. وذلك لضرورة تقديم فهم الإيمان إجمالاً، وبعد دخول الإنسان فى دين الله تعالى، يبدأ بالاستفصال عن الأحكام التى تتضمنها كلمة التوحيد.

وحتى فى إطار الأدب نجد أن العملية التعليمية تتخذ هذا المفهوم التربوى، فلا ينتقل المدرس إلى علم الهوامش وتعليقات العلماء، وزوائد الخلان، ونوادير الظرف حتى يستكمل أصول العلم والمعارف، ثم لا بأس عليه من الانتقال .

ونكتفى من ذلك ببعض ما أشار إليه الجاحظ حيث يقول: (ولا تلتمس الفروع إلا بعد إحكام الأصول، ولا تنظر فى الطُرف والغرائب، وتؤثر رواية الملح والنوادر، وكل ما خفَّ على قلوب الفُرَّاغ وراق أسماع الأغمار إلا بعد إقامة الحدود،

(١) فتح البارى: ١ / ١٦٠ .

والبصر بما يثلم من ذلك العمود، فإن بعض من كلف برواية الأشعار بدأ برواية أشعار هذيل قبل رواية شعر عباس بن الأحنف.. وناس من أصحاب الفتيا نظروا في العين والدين قبل أن يرووا الاختلاف في طلاق السنة... (١).

والعمود من علم الشريعة ما كان المكلف محتاجاً إليه بذاته، ثم ما يحتاج إليه الناس، في عقيدتهم أولاً ثم عباداتهم ثم ما يصحح أمور معاشهم، ثم الانتقال إلى العادات، ثم يزيد في معرفته ما يشاء من زيادة في دليل، أو تحقيق لمسألة، أو إكثار لموارد خبر.

وما ينطبق في المجال النظري ينطبق على السلوك أيضاً، فمن الدعاة من يطيع في صغار الأمور دون كبارها، أو ما اعتاد عليه دون ذي الكلفة، أو ما يتناسق مع الهوى دون ما يغلبه الهوى. وقد قال ابن الجوزي - رحمه الله -: (رأيت كثيراً من الناس يتحرزون من رشاش النجاسة ولا يتحاشون عن غيبة، ويكثرون من الصدقة ولا يبالون بمعاملات الربا، ويتعجلون بالليل ويؤخرون الفريضة عن الوقت، في أشياء يطول عدها من حفظ فروع وتضييع أصول. فالله الله في تضييع الأصول، ومن إهمال سرح الهوى، فإنه من أهملت ماشيته نفشت في زروع التقى) (٢).

وللتمييز بين قاعدتي (الأصول قبل الفروع)، وما سلف ذكره من أحوال استثنائية: أنه في الفن الواحد، وعند تساوى أصوله وفروعه في الفهم، تكون الفروع قبل الأصول، ويمكن الاستشهاد بقاعدة شرعية يسهل استقراؤها في الكثير من الشرائع والفرائض والتوجيهات القرآنية، ذكرها الأستاذ سيد قطب - رحمه الله - عند الحديث عن التدرج في تحريم الخمر بقوله: (عندما يتعلق الأمر أو النهي بقاعدة من قواعد التصور الإيماني - أي: بمسألة اعتقادية - فإن الإسلام يقضى فيها قضاءً حاسماً منذ اللحظة الأولى.. ولكن عندما يتعلق الأمر أو النهي بعادة وتقليد، أو بوضع اجتماعي معقد، فإن الإسلام يترث به، ويأخذ المسألة باليسر والرفق والتدرج ويهيئ الظروف الواقعية التي تيسر التنفيذ والطاعة.

فعندما كانت المسألة مسألة التوحيد أو الشرك، أمضى أمره منذ اللحظة الأولى، في ضربة حازمة جازمة، لا تردد فيها ولا تلفت، ولا مجامة فيها ولا مساومة، ولا لقاء في منتصف الطريق، لأن المسألة هنا مسألة قاعدة أساسية للتصور، لا يصلح

بدونها إيمان، ولا يقام إسلام... (١).

وتطبيقاً لهذا المبدأ فإن تعلم العقيدة قبل الفقه لا بد منه، وأصول الشريعة كالقرآن والحديث، قبل فروع الخلاف والتوسع الفقهي، كما أن القاعدة تنطبق في الفن الواحد، فقراءة القرآن وتلاوته قبل معرفة تفسيره وتفسيره العام قبل الغوص بدقائقه، والغوص بدقائقه النافعة قبل الخوض بالمشابهات. أما في الحديث فمعرفة الصحيح قبل الحسن، والحسن قبل الخوض بمعرفة الضعيف ومعرفة متون الأحاديث الصحيحة والاطلاع على شروح البخاري ومسلم أولى من الانشغال بطرق الجرح والتعديل، وتخريج الأسانيد، وتعلم الفروض في الفقه أولى من دراسة السنن، وأبواب الصلاة والزكاة مقدمة على معرفة الوكالة والشركة.

ويتبقى على الداعية معرفة أن ما تسلم به العقيدة، وتصح به العبادة، وقواعد الدعوة إلى الله تعالى: مقدم على الثقافة العامة وحديث السياسة، ولا بد كذلك من التذكير أن بعض هذه العلوم قد تتغير أفضليتها من شخص لآخر، أو في زمان دون غيره، فالداعية التاجر يكون تعلم الزكاة وقواعدها أوجب عليه من غيره، وتعلم قواعد الجهاد لداعية يمارسه مقدم على علوم أخرى، وتعلم الداعية الرد على الشيوعية في بلاد تناطح الشيوعية فيها الحركة الإسلامية مقدم على غيرها، بينما تكون دراسة الشيوعية في مكان آخر ضرباً من الترف الفكري، وهكذا...

٣. العلوم الشرعية بالنسبة لغيرها من كبار العلم

وما عدا علوم الشرع فهي من صغاره، فما كان من الكتاب والسنة والإجماع فهو علم مقطوع به أنه من الحق، وهو الذي عليه الثواب والعقاب، وهو ما أراد الله تبليغه لعباده، وأرسل لأجل هذا التبليغ رسوله به وأنزل كتابه، وفي مقابل ذلك علوم مختلفة مما في أيدي أهل الكتاب، وما روى عن الأوائل من المتفلسفة ونحوهم، وما دلت عليه الأقيسة العقلية، وما قاله أكابر هذه الأمة، علماؤها وأمرؤها. وكذلك تتضمن الأقيسة العقلية الشرعية، وما ينقدح في عقول البشر. كل ذلك فيه الحق والباطل، فلا يرد كله ولا يقبل كله، بل يقبل منه ما وافق الحق، ويرد منه ما فيه من الباطل.

وبهذا الميزان تصبح كل هذه العلوم من صغار العلم مقارنة بعلوم الشريعة القطعية التي يجب تقديمها، وذلك: (أن الحق الذي لا باطل فيه هو ما جاءت به الرسل عن الله، وذلك في حقنا ويعرف بالكتاب والسنة والإجماع، وأما ما لم تجيء به الرسل عن الله، أو جاءت به ولكن ليس لنا طريق موصلة إلى العلم به، ففيه الحق والباطل، فلهذا كانت الحجة الواجبة الاتباع: الكتاب والسنة والإجماع، فإن هذا حق لا باطل فيه، واجب الاتباع لا يجوز تركه بحال... (١)).

بل وحتى العلوم الشرعية لها منازل ومراتب، ولا ينتقل من علم إلى آخر إلا باستكمالها، فقد قال أحدهم لمؤدب ولده: (لا تخرجهم من علم إلى علم حتى يحكموه، فإن اصطكاك العلم في السمع وازدحامه في الوهم: مضلة للفهم) (٢).

٤ - صلب العلم قبل ملحه

فكل علم أو فن له صلب، وله ملح، ويتميز أحدهما عن الآخر بأن صلب العلم يمتاز بثلاثة خصائص:

الأولى: هي العموم والاطراد.

والثانية: هي الثبوت في غير زوال.

والثالثة: كون العلم حاكماً لا محكوماً عليه، بمعنى كونه مفيداً لعمل يترتب عليه مما يليق به.

(والقسم الأول هو الأصل والمعتمد والذي عليه مدار الطلب، وإليه تنتهي مقاصد الراسخين، وذلك ما كان قطعياً أو راجعاً إلى أصل قطعي، والشريعة المباركة المحمدية منزلة على هذا الوجه، ولذلك كانت محفوظة في أصولها وفروعها.. وأيضاً فإن الكليات العقلية مقتبسة من الوجود، وهو أمر وضعي لا عقلي، فاستوت مع الكليات الشرعية بهذا الاعتبار، وارتفع الفرق بينهما.. (٣)).

وهذا مظهر آخر من تقدم الأصول على الفروع، بل إن الشريعة نفسها بتكاليفها ليست على نمط واحد، فقد وجد بالاستقراء أنها على ثلاثة أنواع: ضرورية وحاجية

(١) فتاوى ابن تيمية: ١٩ / ٥.

(٢) عيون الأخبار: ١٦٧ / ٢.

(٣) الموافقات للشاطبي: ٧٧ / ١، ويعني باقتباسها من الوجود: أنها من حقائق الحياة وظواهرها العامة المطردة التي تعرف بالاستقراء والتجربة وليس بالتأمل فقط.

وتكميلية، ولا ينتقل من إحداها إلى الأخرى إلا بعد استكمالها، وكل تكليف قد يكون مداره على التقسيمات الثلاثة.

٥- الواضح قبل الغامض

ومن معاني الربانية أن الواضح من المسائل مقدم على الغامض منها، وهذا معنى قول ابن حجر: إن المراد (بصغار العلم ما وضح من مسائله، وبكباره ما دق منها)، إذ إن من المعلوم أن في كل علم جوانب واضحة يسهل فهمها، وفيه ما قد يصعب فهمه أو يحيطه شيء من الغموض، فيكون الواضح أولى بالتعليم من غير.

والأصل في المفتي والكاتب والداعية والخطيب إبلاغ العلم لأهله على هذا المنوال، فلا يجوز للمفتي - عند ابن القيم - (تخير السائل، وإلقاؤه في الإشكال والحيرة، بل عليه أن يُبَيِّنَ بياناً مزيلاً للإشكال، متضمناً لفصل الخطاب، كافياً في حصول المقصود، لا يحتاج معه إلى غيره) ^(١). ويقاس على المفتي غيره من أهل التربية والتعليم.

وقد ورد في النصوص نهى الرسول ﷺ عن الأغلوطات، وهى الألغاز الملتوية، وهذا الدليل، وإن لم يكن مباشراً إلا أن الإمام الأوزاعي - رحمه الله - أخذ هذا المعنى المراد من الحديث... فقال مفسراً: (يعنى صعب المسائل) ^(٢).

وكما أن الأمر ينطبق على المعاني، فهو أيضاً ينطق على الألفاظ؛ فاختيار الواضح منها أولى من اختيار المفهوم وترك المعقد، فالبيان في بعض ما قيل عنه: (أن يكون الاسم يحيط بمعناك، ويحكى عن مغزاك، وتخرجه من الشركة، ولا تستعين عليه بالفكرة، والذي لا بد منه أن يكون سليماً من التكلف بعيداً من الصنعة، بريئاً من التعقيد، غنياً عن التأويل) ^(٣).

ومما يتفرع عن ذلك كراهية التعرُّف في الكلام، والبعد عن بسيط القول والسهل المفهوم من الكلام، والأجدي اختيار أقصر الطرق، وأسهل الأساليب التي يفهمها المخاطب، ويدرك كنهها، دون أن يؤدي به ذلك إلى عدم الفهم، أو تحميل المعاني غير ما تحتمل.

(١) إعلام الموقعين: ٢٢٨/٤.

(٢، ٣) عيون الأخبار: ١١٧/٢، ١١٨، ١٧٣.

٦. المرونة فى الأخذ والعطاء

فمهما بلغ العلم من العلم فإنه لا يستطيع إدراك كل أمر، فما أكثر ما سقط جهابذة العلماء فى نسيان أمر بسيط، وقد قال عمر رضي الله عنه : لا أعلم ما الأب ؟ لما قرأ «وفاكهة وأباً»، وأنكرت عائشة رضي الله عنها روايات بعض الصحابة، كما أنها نفسها استدركت على كثير من الصحابة أخطاءهم، وكأنه سر من أسرار الله تعالى ليثبت العصمة فقط لأنبيائه، ولكى يظل العلم أخذاً وعطاءً، ولا بد فيه من التدريس لأجل التعلم، كما أنه لابد من طلب السؤال والاستيضاح كى يتبين الخلل، ويسد النقص، ويدفع غرور المتحدث، ويشارك الآخرين بالرأى.

قال الأصمعى عن إدراكه للعلم، وكيف تم له ذلك: (بلسان سؤل، وقلب عقول، وكنت إذا لقيتُ عالماً أخذتُ منه وأعطيته) ^(١).

٧. التدرج

وهذا يقتضى الترتيب بين أجزاء الفن الواحد من العلم، أو بين الفنون المختلفة من العلم، والقفز دون مراعاة الترتيب يضيع العلم، ويبعثر الجهد، وليكن القصد تحرى الترقى باستمرار.

(فإن العلوم مرتبة ترتيباً ضرورياً، وبعضها طريق إلى بعض، والموفق من راعى ذلك الترتيب و التدرج) ^(٢).

وهنا موازنة لابد من ذكرها، وهى أن لا يعكف المتعلم على إتقان فن من فنون العلم بحيث يحيط بكل جوانبه ومسائله وفروعه فإن العمر لا يتسع لكل ذلك، بل إن العمر لا يكفى أحياناً لاستجماع علم واحد فقط، ولكن المقصود أخذ قواعد كل فن، وأحسن ما فيه، ومناهجه العامة، حتى لا يضيع غيره، ولذلك قيل فى وصايا المتعلم: (أن لا يخوض فى فن من فنون العلم دفعة، بل يراعى الترتيب ويبدأ بالأهم، فإن العمر إذا كان لا يتسع لجميع العلوم غالباً، فالحزم أن يأخذ من كل شىء أحسنه) ^(٣).

والتدرج فى العلم مظهر من مظاهر التيسير، و التبشير، وقد قال رسول الله صلوات الله عليه وآله كما فى كتاب العلم من صحيح البخارى: «يسروا ولا تعسروا، بشروا ولا تنفروا».

(١) عيون الأخبار: ١١٨/٢ . (٢، ٣) إحياء علوم الدين: ١ / ٥٢ .

وقال ابن حجر معقباً: (.....) وكذا تعليم العلم يجب أن يكون بالتدرج؛ لأن الشيء إذا كان ابتداءً سهلاً حُب إلى من يدخل فيه، وتلقاه بانسباط وكانت عاقبته غالباً الازدياد، بخلاف ضده (١).

ومن فروع التدرج: التدرج مع تلميذك: (أن تناوله المعلومات وتكسبه الصفات بتدرج، وحسب أهميتها المطلقة، شرعاً ومصلحةً أو أهميتها المرحلية، أو أهميتها النسبية المنبثقة من طبيعة تربيته السابقة قبل أن يبدأ رحلته معك، فتبدأ بالأهم، فالأقل أهمية...) (٢).

وكذلك يجب أن تغرس الموازين الأساسية قبل تطبيقاتها الجزئية، أو المعلومات التكميلية وعلى تربيتنا الدعوية (أن تهدر الجزئيات والتفاصيل وتعتنى بغرس الموازين الإسلامية وفق نظرات شرعية صافية بعيدة عن أطوار التفكير الجاهلي، والغربي خصوصاً، ولا يضير بعد ذلك أن يكون التلميذ مفقداً لصفات أخلاقية إسلامية تكميلية، أو معلومات سياسية ثانوية، أو أعراف إدارية ثانوية) (٣).

ومظاهر التدرج هذه مطلوبة في طلب العلوم الشرعية والدينية، كما أنها مطلوبة في الفقه الدعوى، وبالتالي فإن معرفة صفات الخالق وأسمائه ومعرفة توحيد الربوبية والألوهية أولى من الخوض في الخلافات الكلامية، ومناهج علماء الكلام، والردود على أهل البدع، وكذلك معرفة علم التوحيد يجب أن تسبق معرفة علم الفقه، والجد في فهم القرآن وقراءة الحديث مقدمة على أصول الفقه والخلاف.

واستغرب ابن الجوزي كيف أضاع بعض العلماء أعمارهم في تفويت علوم مهمة نتيجة لانشغالهم بعلم واحد، طمعاً في استكمالهم وتحصيل كل فروعهم، فأدى ذلك إلى تضييع بقية العلوم، دون الحصول على فائدة العلم الواحد، إذ إن بين العلوم تداخلاً، ولا تؤتى الثمرة إلا بفهم القليل من كل علم، ثم لا بأس من الاستكثار من أحدها أو بعضها.

(اعلم أنه لو اتسع العمر لم أمنع من الإيغال في كل علم إلى منتهاه، غير أن العمر قصير، والعلم كثير... فالتشاغل بغير ما صحَّ يمنع التشاغل بما هو أهم... ولما تشاغل يحيى بن معين بالطرق فاته من الفقه الكثير... ومن أقبح الأشياء أن تجرى حادثة

یسأل عنها شیخ قد كتب الحدیث ستین سنة فلا یعرف حکم الله عز وجل فیها^(١). فانظر نقد ابن الجوزی لیحیی بن معین علی غزارة علمه فی الحدیث، وفضله، ولكنه مع علمه الحدیثی فی الرجال غابت عنه بعض مسائل الفقه البسیطة، بل - ورغم علمه - لم یدرك ما وصل إلیه أقرانه كالإمام أحمد وغيره رحمهم الله تعالى.

٨ - المتفق قبل المتفرق

أن یكون التعلیم للمسائل المتفق علیها ولا یخوض فی مسائل الاختلاف، فالاختلاف للمتعلّم مفسدة، وإضاعة لأصل مقاصد التعلیم، كما وأنه یربك عملية التفكير، إضافة إلی ما قد یؤدی إلی إضاعة الدین وحفظ أصول الشریعة، لما فی الأمر من ضیاع فی متاهة الجدول ولذلك قیل: (أن یحترز الخائض فی العلم فی مبدأ الأمر عن الإصغاء إلی اختلاف الناس، سواء كان ما خاض فیهِ من علوم الدنیا أو من علوم الآخرة. فإن ذلك یدهش عقله ویحیر ذهنه، ویفتّر رأیه ویؤیسه عن الإدراك والاطلاع)^(٢).

ولا یعنی ذلك تقلیل أهمية علم الفقه المقارن ومعرفة أسباب اختلاف الفقهاء، فإن هذا العلم من الأهمية بمكان، وهو العدة الرئيسة لمن یطلب الاجتهاد، أو لمن یطلب جمع صحاح المسائل وجید الإفتاء إذا عزم علی التحرر من ضیق التقليد المذهبی، ولكن الكراهة تنصرف إلی تقديم الاشتغال بذلك والتهاء من لازال فی مدارج البدایة بمثل هذا الاختلاف، فإنه یشتت فكره ویوهمه أوهاماً یلیق به أن یكون عنها بمعزل.

وما ینطبق علی الفقه، ینطبق علی العمل الترویى أيضاً، وقد أورد ابن القیم هذا المعنی تمييزاً بین المتكلم والسالک إلی الله: (فترى المتكلم یبحث فی الزمان والمكان والجواهر والأعراض والأکوان... والسالک إلی الله قد تجاوزها إلی جمع القلب علی ربه المكون وعبوديته بمقتضى أسمائه وصفاته... فالتكلم متفرق مشغل فی معرفة حقيقة الزمان والمكان، والعارف قد شحّ بالزمان والمكان أن یذهب ضائعاً فی غیر السیر إلی رب الزمان والمكان)^(٣).

فعلى المربی والمعلم مراعاة ذلك، وأن لا یسمح لإخوانه بالقفز فی سلم

(١) صید الخاطر / ٣٦٦ . (٢) إحياء علوم الدین ١ / ١٥ . (٣) مدارج السالكين ٢ / ٣٤٩ .

المعرفة: (وذلك بأن يمنعه من التصدى لرتبة قبل استحقاقها، والتشغل بعلم خفى قبل الفراغ من الجلى...) (١).

فهذا الواجب منصب على المربي والمعلم قبل التلميذ الطارئ على طلب العلم والذى قد لا يدرك المفسدة فى ذلك، لذلك فالتقصير فى تدريس العلم وفق مراتبه مما ينقد عليه العلماء، ولذلك انتقد السلف بعض العلماء وقالوا عنهم:

(أبحثُ الناس عن صغير، وأتركهم لكبير).

(أعلم الناس بما لم يكن، وأجهلهم بما كان).

وقد تكون هذه الصفات من خصائص علماء الدنيا، الذين يطلبون بتدريس العلم الشهرة والرئاسة.

ويتضمن هذا المعنى أيضاً عدم تتبع شوارد المسائل، أو ما لا طائل وراءه وقد قال ابن القيم: (من تتبع غرائب المسائل، لم يصب من الخير شيئاً).

٩. التخصيص

ومن معانى الربانية فى التعليم تخصيص قوم دون قوم بنوع من العلم، وذلك لاختلاف المفاهيم والمدارك، والتجارب والممارسات، مما قد يؤدى إلى الفهم الخاطئ أحياناً من قبل البعض عند استماعهم أو قراءتهم لعلم دون مداركهم. أو أن يقود إلى تأويل واه، أو تفسير باطل، بل قد يؤدى إلى تحميل الكلام أكثر مما يحتمله، والبناء على الألفاظ أكثر مما تطيق، وفى حالات أخرى قد يكون ظاهر الحديث أو المقال يقوى على بدعة أو يقود إلى معصية بينما ظاهره فى الأصل غير مراد، ولذلك ورد عن الرسول ﷺ جملة أحاديث يُستنبط منها هذا المعنى... ومنها قوله لمعاذ: «من لقى الله لا يشرك به شيئاً دخل الجنة، قال: ألا أبشرك الناس؟ قال: لا، إني أخاف أن يتكلموا» (٢).

وقد استنبط البخارى المعنى المطلوب فترجم لهذه الأحاديث فى كتاب العلم من صحيحه بقوله: (من خَصَّ بالعلم قوماً دون قوم كراهية أن لا يفهموا. وقال على: حدثوا الناس بما يعرفون، أتحبون أن يكذب الله ورسوله؟).

وقال الإمام مسلم في مقدمة صحيحه، واعتبرها كقاعدة في منهجه: (فأما عوام الناس الذين هم بخلاف معاني الخاص من أهل التيقظ والمعرفة فلا معنى لهم في طلب الكثير، وقد عجزوا عن معرفة القليل).

وفي إطار العمل الإسلامى يضطر المربى أحياناً أو المعلم - انطلاقاً من هذا المفهوم التربوى - أن يخصص أفراداً دون غيرهم ببعض الأحاديث أو الكلام، وليس ذلك تضعيفاً لهم أو عدم الثقة بهم، أو حجزهم عن خير كثير، أو حرمانهم من فضل العلم، ولكن منعاً لسوء فهم، أو إدخالهم في فتنة، أو أن يكون العلم بحاجة إلى مقدمات أخرى، بل قد يكون الغرض أحياناً من منع بعض الأحاديث عن بعض الدعاة هو حفظ قلوبهم من الوسواس، ولأذائهم من سماع الغيبة، ولصدورهم من الضغينة، وسد أبواب فضول الكلام عنهم، وإعانتهم على عدم التدخل فيما لا يعنى، أو الانشغال بما لا يجدى.

واستدل ابن حجر لهذا المعنى بذكر بعض أنواع الأحاديث التى يحدث بها قوم دون قوم، فأورد بعض ما اجتهد به علماء السلف. فقال: (ومن كره التحديث ببعض دون بعض أحمد فى الأحاديث التى ظاهرها الخروج على السلطان، ومالك فى أحاديث الصفات، وأبو يوسف فى الغرائب، ومن قبلهم أبو هريرة كما تقدم عنه فى الجرايين وأن المراد ما يقع من الفتن، ونحوه عن حذيفة، وعن الحسن أنه أنكر تحديث أنس للحجاج بقصة العُرنين لأنه اتخذها وسيلة إلى ما كان يعتمد منه من المبالغة فى سفك الدماء بتأويله الواهى، وضابط ذلك أن يكون ظاهر الحديث يقوى البدعة وظاهره فى الأصل غير مراد، فالإمساك عنه عند من يخشى عليه الأخذ بظاهره مطلوب) (١).

ومما روى أيضاً ما ذكره مسلم عن ابن مسعود: (ما أنت بمحدث قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة) (٢).

قال ابن وهب: (وذلك أن يتأولوه غير تأويله ويحملوه على غير وجهه).

وخرَجَ شعبة عن كثير بن مروة قوله: (إن عليك فى علمك حقاً كما عليك فى مالك حقاً، لا تحدث بالعلم غير أهله فتجهل، ولا تمنع العلم أهله فتأثم، ولا تحدث بالحكمة عند السفهاء فيكذبوك، ولا تحدث بالباطل عند الحكماء فيمقتوك) (٣).

ومن دواعى التخصيص أيضاً اختلاف قوة الدوافع التى تدفع الدعاة لتعلم علم من العلوم، وقد يوافق العلم هوى الداعية وقد لا يكون، وهذا يؤثر بدوره على المربى أو المعلم بإقباله على التدريس وتوفره على التعليم فلا يطوى ما عنده من المكنون، ولا يخفى عن جنوده المخزون. ولذلك فاختيار المربين لصنوف الدعاة فى استماعهم لأنواع من الكلام يخضع إلى قواعد التربية وأصول البناء..، ويحكم ذلك التجارب والممارسات الدعوية وقد قيل:

(لكل تربة غرس، ولكل بناء أس)

(ولكل ثوب لابس، ولكل علم قابس).

وما أحوج جمهور المربين والدعاة لهذا المعنى، وأن يقتصر حديثهم على ما ينفع، وترك الخوض فى ما يقود إلى الخلاف أو قسوة القلب، من حديث الوجاهات، وأقاويل الفتن، وحوار القادة، وخلافات الأقران، وأخبار السوء.

وهذا لا يتم أيضاً - فوق ذلك كله - إلا بفراصة يمنحها الله تعالى لمن يشاء من عباده العلماء، حتى يستطيع تمييز الكلام المقال واختيار السامع له، (وينبغى أن يكون للعالم فراصة يتوسم بها المتعلم، ليعرف مبلغ طاقته، وقدّر استحقاقه.. فإنه أروح للعالم وأنجح للمتعلم، وإذا كان العالم فى توسم المتعلمين بهذه الصفة، وكان بقدر استحقاقهم خبيراً، لم يضع له عناء، ولم يخب على يديه صاحب، وإن لم يتوسمهم، وخفيت عليه أحوالهم، ومبلغ استحقاقهم، كانوا وإياه فى عناء مكّد، وتعب غير مجد..) (١).

وهذا الفراصة وإن كان للذكاء والفطرة منها نصيب، فإن للتقوى والتجارب نصيبها الأوفر.

وقد اعتبر بعض العلماء أن من الضرورة كتمان العالم لبعض العلم، بل وإنها من مظاهر الإمامة، فقد قال الإمام مالك مؤكداً لهذا المعنى: (لا يكون إماماً أبداً، وهو يحدث بكل ما سمع) (٢).

فانظر لهذا الفقه الوافر من الفقيه الجليل، فالفقه ليس بكثرة الكلام وإنما باختياره لمن يصلح له... ولذلك قيل: (قلوب الأبرار قبور الأسرار، فلا ينبغى أن يفشى

العالم كل ما يعلم إلى كل أحد) (١).

ويجب التنبيه هنا - مع هذا التخصيص - إلى عدم إشعار الدعاة الآخرين من قبل المربين بوجود دروس خاصة، أو بحوث مميزة، أو دراسات معينة، وإشاعة ذلك - وإن كان من الضروري تربيتهم على ذلك، والرضا به - والسبب ما قد يحصل للبعض من فتور في طلب العلم الأولى والاستزادة، وتشوقه إلى النهاية، فينشغل قلبه بحب الاطلاع، وقد أشار الغزالي لهذا المعنى فقال عن المتعلم القاصر: (ينبغي أن يلقي إليه الجلى اللائق به، ولا يذكر له وراء هذا تدقيقاً... . فإن ذلك يفتر رغبته في الجلى ويشوش عليه قلبه، ويوهم إليه البخل به عنه، إذ يظن كل أحد أنه أهل لكل علم دقيق... .) (٢).

١٠. سهولة العبارة مقدمة على صعوبتها

لأن الأصل تبليغ السامع بالمعنى، وتوصيل العلم إليه بأقرب طريق دون التواء، إذ لو صحت النية من المتحدث أو الكاتب لاختار أحسن السبل لإيصال العلم، ولا يختار الطريق الوعر، لأنه ليس بحاجة لإثبات فصاحته، ولا لإظهار عمله، بل يطلب بالعلم رضا الرحمن.

(وعلى هذا النحو مرّ السلف الصالح في بث الشريعة للمؤلف والمخالف، ومن نظر في استدلالهم على إثبات الأحكام التكليفية علم أنهم قصدوا أيسر الطرق، وأقربها إلى عقول الطالبين، لكن من غير ترتيب متكلف، ولا نظم مؤلف، بل كانوا يرمون بالكلام على عواهنه ولا يبالون كيف وقع في ترتيبه، إذا كان قريب المأخذ سهل الملتبس... .) (٣).

ومن المسالك الوعرة في تصعيب الألفاظ، وإضاعة المعاني، ما قد يلجأ إليه البعض من استعمال المجاز المبالغ فيه، والرموز الشاذة المعقدة وجميع أنواع المواضعة الاصطلاحية، والمواضعة ضربان: أحدهما: عامة؛ وهى ما تواضع عليه العلماء في كل علم فيما جعلوه ألقاباً لمعان لا يستغنى المتعلم عنها، ولا يقف على معنى الكلام إلا بها. والثانية: خاصة. وهذا هو الذى لا ينبغي استعماله من قبل الداعية، لعدم فائدته من جهة، ومظهر من التخليط فى النية من جهة أخرى لأنه: (إنما يختص غالباً

بأحد شيئين: إما بمذهب شنيع يخفيه معتقده، وبجعل الرمز سبباً لتطلع النفوس إليه، واحتمال التأويل فيه سبباً لدفع التهمة عنه، وإما لما يدعى أرباب أنه علم معوز، وأن إدراكه بديع معجز... (١).

وكلا الأمرين مما يترفع عنه الداعية، وحتى لو احتاج إليها لسبب ثانوى فربأ بنفسه عنها، سداً للذرائع، وابتعاداً عن مقالة السوء، ولكن مع هذا: (...). ربما استعمل الرمز من الكلام فيما يراد تفخيمه من المعانى وتعظيمه من الألفاظ، ليكون أحلى فى القلوب موقعا، وأجل فى النفوس موصعا، فيصير بالرمز سائراً، وفى الصحف مخلّداً... (٢).

وعندئذ لا بأس باستعماله ما دام مفهوماً، ويقع فى قلب السامع موقعاً جميلاً، ما دام لا يقود إلى مفسدة، على شرط عدم المبالغة والإكثار منه، أو التكلف للإتيان به، وأن يكون السامعون ممن تدرك عقولهم مثل هذه الرموز، ومع هذا فالنقد هنا ينصب على الخطيب أو الكاتب إذا تكلف الأمر والصعوبة، وكان يمكن له التبسيط والتسهيل إذ إنه يتعمد التكلف ويسعى إليه مما يشعر السامع بأنه يبتغى وراء ذلك شهوة القول، ولا يحرص على تبليغ المعنى، وربما لا يكون مسئولاً عن ذلك؛ فقد يكون الأمر بحد ذاته يحتاج إلى زيادة تأمل وفضل معاناة، حتى ينبجلى ذو الخفاء، وينكشف الغامض، وباستعمال الفكر فيه يكون الارتياض به، فيسهل منه الصعب ويقرب به البعيد، وعندئذ يبرأ القائل به من الاتهام، والأمر مردوده إلى نفس الكلام، أو إلى العسر فى الأفهام، بل وأحياناً كل القصور فى الفهم من المستمع أو القارئ، فقد يمنعه مانع من تصور المعنى وفهمه، فهذا من قلة الفطنة أحياناً، ولا ذنب لأسلوب الكاتب، وعلى من يتلى بذلك كثرة المطالعة وإعادة النظر، والسؤال عما أشكل عليه، وقد قيل:

(لا يدرك العلم من لا يطيل درسه، ويكد نفسه، وكثرة الدرس كد لا يصبر عليه إلا من يرى العلم مغنماً، والجهالة مغرماً، فيحتمل تعب الدرس، ليدرك راحة العلم، وينفى عنه معرة الجهل... (٣).

وقد يكون السبب شبهة تعترض المعنى فتمنع من تصوره، وتدفع عن إدراك حقيقته، أو أفكار تعارض الخاطر، فتذهل عن تصور المعنى لانشغال الذهن، وتعب

(١)، (٢) أدب الدنيا والدين للماوردى / ٦١ .

(٣) أدب الدنيا والدين / ٦٥ .

العقل، وغياب الوعي، فهذه الأمور إذا طرأت على الإنسان لم يقدر على مغالبة قلبه، وإجبار عقله، وهنا يأتي المعنى التربوي الذي قُصد من ربانية التعليم، والتوسط في التقديم... وقد قيل: (إن لهذه القلوب تنافراً كتنافر الوحش، فتألفوها بالاعتصاف في التعليم، والتوسط في التقديم، لتحسن طاعتها، ويدوم نشاطها).

وبناء على ما ذكر يظل واجب المربي منتصباً في ضرورة تخير الألفاظ لكل طبقة، ومعرفة طبيعة المستمعين جزء مهم من الوعي، وقد يكون التدقيق الكثير مضیعة للبساطة المطلوبة، ولذلك يوصى بأن: (يكون الخطيب رابط الجأش، ساكن الجوارح، قليل اللحظ متخيراً للفظ... ويكون في قواه فضل للتصرف في كل طبقة ولا يدقق المعاني كل التدقيق، ولا ينقح الألفاظ كل التنقيح)^(١).

بل إن الاسترسال بالمعاني أبلغ حتى في السمع، وما خرج من القلب يدخل إلى القلب، وكثرة الشرح والتفصيل تقتل جمال المعاني، ومن أبيات الشاعر العالمي فيكتور هيجو:

(لا تشرح، فإن الشرح يفسد طرافة الموضوع).

١١- الأساليب الجميلة

من الربانية استعمال الأساليب الجميلة الحلوة المؤدية للمعنى، وعدم استعمال العبارات الخشنة الجارحة والتي لها نفس الأداء، لأن الرفق ما كان في شيء إلا زانه، والعبارات الجميلة دليل على شفافية المسلم، وحسن انتقائه، وقد قال المصطفى ﷺ: (لا يقولن أحدكم خبثت نفسي، ولكن ليقل لقيت نفسي).

(يؤخذ من الحديث استحباب مجانبة الألفاظ القبيحة والأسماء، والعدول إلى ما لا قبح فيه.. وإن كان المعنى يتأدى بكل منهما..)^(٢). وللتعبير أثر في إبراز الحق وكم من حق يخرج به إلى الباطل سوء التعبير، وما أحسن القائل:

تقول : هذا جناء والنحل تمدحه وإن تشأ ، قلت : ذا قيء الزناير
مدحاً وذمّاً ، وما جاوزت وصفهما والحق قد يعتره سوء تعبير

١٢- المزج بالرقائق

(١) عيون الأخبار ٢ / ١٧٣ . (٢) فتح الباري ١٠ / ٥٦٤ .

ومن الربانية فى التعليم مزج كل علم بالرقائق كى تتحقق السكينة الإيمانية ولا يسيطر العقل وحده على القلب، والفكر على الروح، فتنحول المعانى الإيمانية إلى فلسفة عقيمة، وتضيع المقاصد الأصلية لعملية التعليم التربوى، إذ إن أصل المقاصد فى التعليم ربط المخلوق بربه، وتذكيره بالآخرة، وجعله يشمر بساعد الجد للعبادة والعمل، وإلا فدراسة العلم دون هذه النية مضيعة للوقت، والتهاى بالشهوات، وقد قيل:

(رأيت الاشتغال بالفقه وسماع الحديث لا يكاد يكفى فى صلاح القلب إلا أن يمزج بالرقائق والنظر فى سير السلف الصالحين، فأما مجرد العلم بالحلال فليس له كبير عمل فى رقة القلب، وإنما يرق القلب بذكر رقائق الأحاديث، وأخبار السلف الصالحين، لأنهم تناولوا مقصود النقل وخرجوا عن صور الأفعال المأمور بها إلى ذوق معانيها والمراد بها.

وما أخبرتك بهذه إلا بعد معالجة وذوق... فافهم هذا، وامزج طلب الفقه والحديث بمطالعة سير السلف الزهاد فى الدنيا ليكون سبباً لركة قلبك... (١).

ولما كان هدف عملية العلم والتعليم القرب من الله تعالى وليس طلب الدنيا بها، ففى هذا المعنى صلاح للمعلم والمتعلم، إذ فيه يتذكر المتعلم أن مآل العلم القرب إلى الله، وقصده فى القراءة أو السماع تحلية الباطن وأن لا يقصد به مباهاة الأقران، والتفاخر على الغير، ويذكر المربى أو العالم نفسه دائماً بنفس المعانى، ويتذكر أن تعليمه لله تعالى، دون الرئاسة والمباهاة والمنافسة، ويقدم تقييح ذلك فى نفسه بأقصى ما يمكن، فليس ما يصلحه العالم الفاجر بأكثر مما يفسده إذا تجافى عن الصواب، أو فسدت النية.

وهذا المسلك فى التعليم لابد من التذكير به دائماً، وعدم الأخذ بالأساليب الغربية الباردة حيث الاكتفاء بجوهر الموضوع فقط، فإنما تصلح هذه الطريقة للمباحث الطبيعة لاختلاف أهدافها ومقاصدها، أما التعليم الدعوى فلا بد له من حديث القلب، وأسلوب القرآن الكريم أكبر دليل على هذا الأمر، فليس فيه اقتصار على معان محددة، وإنما يخلط الفقه والأحكام بذكر الموت والآخرة وربطها بالشواب والعقاب، والله تعالى أعلم بقلوب عباده وما تحتاج إليه.

١٣ - تحذير المحدث من اللجاج

يكره التزود بما لا طائل بعده.. وكذلك التكلف، وقد قال الجاحظ في رسائله يحذر المتحدث والكاتب من ذلك وناصحاً له: (وأنا أحذرك من اللجاج والتتبع^(١))، وأرغب إلى الله لك في السلامة من التلون والتزيد، وفي الاستطراف والتكلف، فإن اللجاج لا يكون إلا من خلل القوة، وإلا من نقصان قد دخل على التمكين، واللجوج في معنى المغلوب....).

ومعنى هذا الأمر عدم اختيار المعانى التى تقود إلى الجدل، أو التى تستثير الفتن والمشاكل، أو أن المحدث يختار الرد على ما انتقد عليه ليربح نفسه، ويشبع غروره، ويبلغ الانتصار من خصمه، وكذلك عدم المبالغة بمظاهر التقوى، وادعاء الزهد، والتكلف فى الوقار، وعليه أن يسمع نصيحة ابن قتيبة فى مقدمة عيون الأخبار حيث قال: (وأحببتُ أن تجرى على عادة السلف الصالح فى إرسال النفس على السجية والرغبة بها عن لبسة الرياء والتصنع، ولا تستشعر أن القوم قارفوا وتزهت، وثلّموا أديانهم وتورعت..).

١٤ - ربانية الجواب

وأخيراً نختم المبحث بربانية الجواب، فإن المتحدث أو الكاتب لابد من تعرضه للأسئلة، فكان لزاماً: الجواب عنها، وتكثر الحاجة لذلك وسط الدعاة، بل غالباً ما يكون وقت الأسئلة للمربين والقادة والخطباء - فى كثير من الأحوال - مساوياً لوقت الدرس أو المحاضرة.

وبحسبنا هنا أن نذكر أهم خصائص الجواب، قياساً على ما ينبغى للمفتى أو الإمام عندما يُسأل عن مسألة:

يجوز للمتحدث أو المربي أن يجيب السائل بأكثر مما سأل: (وهو من كمال نصحه وعلمه وإرشاده، ومن عاب ذلك فلقله علمه)^(٢).

وقد ترجم الإمام البخارى فى نهاية كتاب العلم من الصحيح (باب: من أجاب السائل بأكثر مما سأل) عند إيراده لحديث المحرم الذى سأل عن ما يلبس المحرم، فأجابه عليه السلام: (لا يلبس القميص ولا العمامة ولا السراويل ولا ثوباً مَسَّهُ الورس).

(١) إعلام الموقعين ٤ / ٢٠٥ .

(٢) التتبع فى الأمر: السير فيه على خلاف الناس .

ويؤخذ من الحديث: (أن المفتي إذا سئل عن واقعة واحتمل عنده أن يكون السائل يتذرع بجوابه يعديه إلى غير محل السؤال: تعين عليه أن يفصل الجواب)^(١).

ينبغي للمربي إذا سأل إنسان عن شيء يحتاج، ومنعه منه، أن يدلّه على ما يعوض عنه، وهذا من تمام شفقة المربي والداعية على أخيه حتى لا يدعه في حيرة من أمره، أو يصعب عليه الأمر، أو يجعله يشعر بعدم كفاية المربي.

(فمثاله في العلماء مثل الطيب الناصح في الأطباء، يحمي العليل عمّا يضره ويصف له ما ينفعه، فهذا شأن أطباء الأديان والأبدان)^(٢).

ودليل ذلك منع الرسول ﷺ لبلال أن يشتري صاعاً من التمر الجيد بصاعين من الرديء، فقال له في الحديث المتفق عليه:

(بع الجمع بالدراهم، ثم اشتر بالدراهم جنيهاً).

والجنيب: هو المتقى الذي لا ردىء فيه، أو الكبيس.

والجمع: هو الدّقل أى ردىء التمر.

والمنع - في إطار الجماعة المسلمة - من أمر ما، دون تبيان السبب أو إعطاء البديل لا يقود فقط إلى الحيرة، وعدم الشعور بعدم كفاية المربي، بل قد يقود الداعية - والناشئ خاصة - إلى التخبط والبحث عن الجواب عند شخص آخر، يوقعه في فتنة.

التنبيه على وجه الاحتراز، إذا شعر المتحدث أن كلامه سوف يؤدى بالبعض إلى فهم خاطئ، أو إضافة غير صحيحة عليه، أو أن هنالك استثناء في أصل المسألة.

وكلما كان كلام المتحدث أو الكاتب مرغوباً فيه، ومما يتلقفه الدعاة: كلما دعت الضرورة أكثر إلى الحذر في العبارات، والتنبيه عما قد يحصل من الفهم الخاطئ، أو التفسير السيئ، حفظاً للمصلحة، فليس هنالك ما هو أسوأ من زلة العالم في اختلاف العقول وتباين الأفهام.

التمهيد للحكم أو القول المستغرب بما يوضح ذلك، ويدفع السوء، حتى لا

(١) فتح الباري ١ / ٢٣١ . (٢) إعلام الموقعين ٤ / ٢٠٥ .

يسبب مفسدة قبل استكمال الجواب، وحتى تتنبه النفوس للسماع الكامل، وحتى يرجع صاحب الغفلة إلى الانتباه فلا يقع في الوهم.

(إذا كان الحكم مستغرباً جداً مما لم تألفه النفوس، وإنما ألفت خلافه، فينبغي للمفتي أن يوطئ قبله ما يكون مؤذناً به كالدليل عليه، والمقدمة بين يديه، فتأمل ذكره سبحانه قصة زكريا وإخراج الولد منه بعد انصرام عصر الشبيبة وبلوغه السن الذي لا يولد فيه لمثله فيه العادة... والمقصود أن المفتي جدير أن يذكر بين يدي الحكم الغريب الذي لم يؤلف مقدمات تؤنس به، وتدل عليه، وتكون توطئة بين يديه) (١).

ومثل هذا تكثر الحاجة إليه وسط الدعاة، كإلافتاء في بعض المسائل التي تختلف باختلاف الزمان والمكان، أو الخروج عن المؤلف من الأحكام لمصلحة شرعية، أو لضرورة، أو التشدد في أحكام أخرى سداً للذريعة، أو بعض الفتاوى التي تصح في دار الكفر دون دار الإسلام، أو الأخذ بالأحوط حيناً وبالأيسر حيناً آخر.

إعطاء الجواب على قدر فهم السائل، ولذلك قيل: إن معرفة الناس ضرورية، وتعرف هذه من قرائن الأحوال، فجواب سؤال العالم ليس كسؤال العاَمى، والجواب اللازم للداعية الملتزم ليس كجواب من كان جديداً على العمل الإسلامى، وجواب الباحث عن المعرفة ليس كمن يريد إفحاماً وتعريضاً، والإجابة في الجمع ليس كالإجابة لفرد يمكن النظر إلى حاجته ومقصده، ولهذا اعتبر هذا المنهج من ملامح البلاغة، فاشترط للبليغ:

(أن لا يكلم سيد الأمة بكلام الأمة، ولا الملوك بكلام السوق) (٢)

ولما ذكرنا بعض خصائص الإجابة التي تجب على الداعية الخطيب أو الكاتب، أو عموم أحاديث الدعاة من الشيوخ والمربين، فليس من نافلة القول أن نذكر ملخصاً للمواضع التي يكره فيها السؤال، تعليماً للدعاة وتربية لهم وتنبيهاً، وأولى المسلمين بالالتزام بها: جمهرة الدعاة على اختلاف مستوياتهم.

ونكتفى بعشرة مواطن مهمة يكره السؤال فيها، نقلها — بتصرف واختصار — عن الموافقات للإمام الشاطبى رحمه الله:

- * السؤال عما لا ينفع فى الأمور الدينية والدعوية .
- * السؤال عن زيادة لا فائدة منها، بعدما بلغ المرء من العلم فى المسألة حاجته .
- * السؤال من غير احتياج إليه عند وقت السؤال .
- * السؤال عن صعاب المسائل وشرارها، وغرائب الأمور، والأغلوطات .
- * السؤال عن علل الأحكام التعبدية التى لا يعقل لها معنى .
- * أن يبلغ السائل بسؤاله إلى حد التكلف والتعمق الزائد .
- * أن يظهر من السؤال معارضة واضحة لظاهر الكتاب الكريم والسنة بمجرد الرأى .
- * السؤال عن المتشابهات فى القرآن الكريم .
- * السؤال عما شجر بين الصحابة الكرام، وكذلك السلف الصالح وعلماء الأمة .
- * سؤال الإفحام ، والتعنت وطلب الغلبة فى الخصام .

ثم قال الشاطبى: (هذه جملة من المواضع التى يكره السؤال فيها، يقاس عليها ما سواها، وليس النهى فيها واحداً بل فيها ما تشدد كراهيته، ومنها ما يخف، ومنها ما يحرم منها ما يكون محل اجتهاد) (١) .

ويكتفى بهذا الحد من خصائص (ربانية التعليم)، وما هى إلا مجرد لمسات، وقد يرد ما هو أكثر من ذلك فى مباحث أخرى، ولعل ما ذكر فى هذه الحلقة من هذه السلسلة ما يغطى هدفاً عاجلاً فى إتقان عملية التربية الإسلامية .



المعايير النسبية لربانية التعليم

يشير مبحث (ربانية التعليم) قضية فى التعليم الدعوى المنهجى هى على مقدار عظيم من الأهمية، وبخاصة أن المذهب السائد فيها، القائل بالتدرج، يمكن أن يعاكس بمذهب آخر يقوم على اجتهد مغاير لا يمنع تجاوز التدرج عند توافر مواصفات وشروط معينة .

وفى مثل هذا الوطن تختلط بعض الاصطلاحات، كما هى مختلطة فى القول المنقول عن ابن حجر من وجوب بدء المعلم بصغار العلم ومقدماته وجزئياته قبل كباره ونتائجه وکلياته، فصغار العلم تعبير واضح، وبيان المقدمات قبل المقاصد أو النتائج أمر يوجه المنطق، ولكن تناول الجزئيات قبل الكليات، والفروع قبل الأصول، هما من الأمور المنهجية التى يتعدد فيهما الصواب، وتختلف فيها النظرات، وفى كل منها مقدار لا يمكن تجاوزه من وجوب التدرج الذى يتلاءم مع نظرية الربانية هذه، إنما فيهما أيضاً مقدار من تأخير فتح ذهن الطالب المتعلم على صنعة التحليل والاستقراء، والقياس والاشتقاق، فى وقت ربما تكون فيه حدة ذكائه فى أقصى مستوى لها، وشغفه وإقباله فى أكمل حضورهما وبخاصة عند بداية التعلم، حيث تستبد الأشواق وتستعر الهمم ولذلك يمكن ويجوز لبعض المربين أن ينتهج نهج تدريس العلوم من أعلاها، بذكر المهم قبل الثانوى، وذكر الكليات والقواعد والموازين قبل الفروع والجزئيات والمقدمات، استثماراً لعاملى الذكاء و الإقبال من باب، وقذفاً لهذه المعانى فى اللاشعور من باب آخر وإن لم يدرك الطالب تمام ما فيها، وتدريباً له أيضاً من باب ثالث على التحليل والتركيب فى وقت مبكر يجعله يلتزم المنهجية فى استقبال المعلومات وتصنيفها ومعرفة قيمتها.

وقد يعطى المربى طلابه مثل هذه القواعد والتمارين التحليلية على جرعات ووجبات بينها فواصل زمنية يرجع خلالها إلى تعليمهم الجزئيات والفروع، وهذه الطريقة تفرضها حاجة ماسة مرئية مجربة فى الواقع هى مفاد نظرية الربانية، إذ كيف يستطيع الاستقراء من لم تكن له ثروة من المعلومات الجزئية يستطيع إجابة النظر عبرها ليستقرئ منها شيئاً من الملاحظات والأمر المتكررة على نسق واحد ليجمع منها قاعدة، مثلاً ؟ وكيف يستطيع القياس والاشتقاق من لم يحط أولاً بخبر الحكم الواضح الثابت الذى يقاس عليه أو يشتق منه ؟

ولهذا فإن مسألة تقديم الأصول على الفروع أو العكس يمازجها اجتهاد منهجي، ونظر ذوقى فراسى، كما يتحكم فيها نوع العلم، ومستوى الطالب فى الذكاء والاستعداد، ولا نرى الإطلاق فى صحة أحد المنهجين المتعاكسين، وإنما هو اختيار للمربي تحكمه التجربة. بل وتحكمه المغامرة أيضا فى بعض الأحيان، كما هى اختيار كذلك لواقعى المنهج التربوى، ولكن هذه النسبية ليست نفيًا للتدرج، وليست هى أقل أثرًا وأهمية فى إثبات وجوب نظرية الربانية، فإنها تتضمن هذا التدرج المبتغى وإن جاز الوجه الآخر، وفى ذلك دفع وإبطال لغلط الدعاة المربين الذين يغفلون ولا ينتبهون إلى ضرورة التسلسل أو التدرج الذى تدعو إليه نظرية ابن عباس وابن حجر فى ربانية التعليم.

• لماذا تربية التقليد إذ الاجتهاد قريب ؟ •

وجماع القول فى هذا الأمر ينقسم إلى ثلاث شعب :

(الشعبة الأولى) :

أن الإسراف فى تعليم الفروع، وتجريدها، والغلو فى عرض المقدمات بدعى التدرج، يؤدىان إلى نشوء عقلية تقليدية محضة تستولى على التلميذ وتجعله سلبيا، لا يطمح إلى إعمال التفكير، ويصير اتكالياً فى العلم، بينما الواجب على المربي أن يثير فى التلميذ كوامن القابلتين المتعاكستين، التحليلية والتركيبية، من أجل إثناء العقلية الاجتهادية فيه، وإنما يكون ذلك بطريقة عرض الأصول والقواعد، وقد يكون الداعية المربي نفسه بحاجة إلى هذه الطريقة من معلم أعلى يعلمه، أو من خلال المطالعة المكثفة، إذ إنه بدوره ضحية منهج الاستغناء بالفروع الذى كان سائداً، بل إن أكثر علماء الأمة الإسلامية اليوم هم ضحية هذا النمط الذى استولى على طرائق التعليم فى قرون التخلف الأخيرة.

(الشعبة الثانية) :

أن المعنى المغاير للتدرج يتأكد فى المحيط الدعوى بخاصة، وذلك بسبب كون الدعاة الذين هم فى طور التلمذة رجالاً راشدين وأصحاب ذكاء، ولم يقبلوا فى الجماعة الدعوية أصلاً إلا من بعد قيام قرينة على توفره فيهم، وأيضاً لأن الكثير منهم أصحاب دراسة جامعية وربما أصحاب شهادة أعلى، مما يعنى اطلاعهم على أبواب من

العلم التقعدي والتحليلي، وهو وإن لم يكن فى المجال الشرعى إلا أنه مفيد، إذ يوجد سبيل استطراقى مشترك بين العلوم، وبعضها يؤثر فى البعض الآخر ويمهد له، والمقدرة الاجتهادية تنمو جزماً لدى دارس للقواعد الإدارية والاقتصادية، أو لدى متتبع للظواهر الفيزيائية والمعادلات الرياضية، ومثل هؤلاء إذا كانوا من الدعاة وأردنا تعليمهم العلم الشرعى فإن الطريق يختصر لهم اختصاراً، وتقوم علومهم التطبيقية أو دراساتهم الإنسانية مقام الترويض الذى يريجه المعلم من الفروع والجزئيات، ويمكنه أن يبدأ معهم دراسة الكليات والأصول.

• تأثر التربية بعوامل عديدة غير التدرج •

(الشعبة الثالثة) :

أن أمر صياغة العقلية الناضجة الكاملة التى من صفاتها الاجتهاد أبعد من أن تسأل عنه هذه الطريقة فى التدرج أو عدمها، وإنما هى عامل واحد من جملة عوامل وفنون عديدة تجتمع لتنتج الأفق الواسع، وقد يكون سرد هذه العوامل مضمراً لدى الباحثين حين يكتبون، ولكن القارئ ينحرف بمقاصدهم إلى أحادية التفسير، ويجعل القضية المبحوثة كأنها الوحيدة المسئولة عن الظاهرة المرصودة وسببها المفرد، وليس ذلك بصحيح، ولا يليق أن نستدرك على مثل هذا الخلل فى التلقى مقدماً وابتداءً بذكر جميع ما هنالك من أخبار وفنون التربية، لأننا نخاف أن يؤدى الإيجاز غير المشروح إلى خلط آخر وتنزيل للكلام على غير منازله المقصودة.

• الحوار سلة السلف المربين •

وإنما يسعنا هنا أن نشير إلى أن الحوار بين المربي وتلميذه هو أحد أهم الوسائل الأخرى لتكوين العقلية الاجتهادية الإبداعية، ويأتى مسانداً للطريقة المضادة للتدرج التى أشرنا إلى نسبية صوابها، بل ومسانداً لطريقة التدرج أيضاً، قد مالت (منهجية التربية القيادية) فى سلسلة العين إلى شرحه وتحبيذه وجعله معلماً بارزاً من معالم هذه التربية، وهى تذكرنا بما كان من حوار ثرى دفاق دائم يومى فى مجالس أبى حنيفة مع أصحابه رحمهم الله، من أمثال أبى يوسف ومحمد بن الحسن الشيبانى وزفر بن الهذيل ومحمد بن زياد اللؤلؤى والقاضى الكندى، أو مجالس الشافعى بمصر مع أصحابه رحمهم الله، من أمثال البويطى والمزنى والحميدى، ومن قبلهم الحسن بن محمد الزعفرانى وأصحابه ببغداد، حتى أن كتاب «الأم» الواسع

كان ثمرة لتلك المحاورات التي رأسها الشافعي، وليس هو من تأليف الشافعي كباحث متأمل على انفراد، وقد تلقف الغربيون هذه الطريقة عن المسلمين وطوروها وجنوا نتائجها الجيدة، حتى أن أطفالهم في المدارس الابتدائية اليوم ليتقنون الحوار، وبشجاعة، وربما وقف أحدهم أمام التلفزيون وتكلم بكلام مرتب واضح لا يداخله تلثم، في الحين الذي لا يزال بعض الدعاة في الشرق يربون أصحابهم على السماع المجرد، ويكون التلميذ الدعوى أمامهم كأنه وعاء يجهدون أنفسهم على صب كم هائل من المعلومات فيه وهو صامت مراقب فحسب، فكأنه قرص كومبيوتر يتم ملؤه، وأني للقرص أن يتناوش الاجتهاد من مكان بعيد ؟

• أهل..... يسابقهم الغرباء •

لكن منافع المحاورات، ومسوغات تجاوز التدرج في المحيط الدعوى لا تنفى حصول فوضى مشهودة تعدت كلمات المعلمين خلالها حتى المقادير الدنيا الواجبة من التدرج، وتحررت من ضوابط تجاوز التدرج، فأضرت، ولو كانت قائمة على اجتهاد لجازت، ولكنها لم تنتسب لأحد المذهبيين، ولم تصدر عن نظر وقصد وعمد وذوق وفراصة، وإنما هي مجرد ارتجال وإهمال فيهما غفلة عن المعايير المنهجية التي تستند إليها الآراء المتعاكسة في التدرج أو عدمه .

وساعد على هذه الظاهرة بوجه خاص ما شاع في المؤتمرات الطلابية الإسلامية المقامة في أوروبا وأميركا من دعوة كبار الكتاب والمفكرين والقادة للكلام أمام جمهور عريض من السامعين، أكثرهم من المبتدئين وصغار الشباب الذين يليق لهم الكلام العاطفي وحديث الحماسة أكثر مما يليق لهم كلام المفكرين والقادة الذين ربما لا يجيدون الخطابة والألفاظ الرنانة كإجادتهم للمحاضرة والتدريس وطرح القضايا ذات العمق، وقد يضطربهم شعار المؤتمر إلى تناول أبعاد تخطيطية أو إيراد نقد شمولي بمستوى أرفع من إدراك أكثر المشاركين .

وصحافتنا الإسلامية مسئولة هي الأخرى أيضاً عن تسبب هذه الظاهرة، إذ إننا بسبب ضمور الحرية في إصدار الصحف انعدمت في أوساطنا الصحافة المتخصصة، فليست هناك صحف خاصة للسياسة، ولا للفكر، ولا للشباب، ولا للأطفال، ولا للنساء، وإنما هي صحف قلائل نادرة تحاول أن ترضى كل الاهتمامات والمستويات والأذواق معاً، فيطلع الشاب والمستجد على كثير من الكلام الذي يتجاوز مرحلته الابتدائية فينشأ عنده الفضول

والخوض المبكر فيما يستحسن أن يمسك عن الكلام فيه، ومباحث مجلتى المجتمع والأمة شاهدة على ذلك.

وموجة كتب (أين الخلل) و(النقد الذاتى) و(المذكرات) زادت رقعة الفضول اتساعاً، وأصبح ابن البارحة الذى يحبو يعتلى المنابر ليعظ القادة، ويصول فى (التأصيل)، ويجول فى (الشورى)، ووقع أناس فى الخلل إذ هم يبحثون عن الخلل ليبرءوا منه، وأصبحت الشورى مشجباً تعلق عليه تطلعات النفس ذات الأخلاط.

• الحيشيات المتضادة فى ربانية التعليم •

والموقف إزاء هذه الظاهرة يمكن أن ينقسم إلى موقفين، ولكل موقف سلبياته وإيجابياته، ويمازج صوابهما التكدير.

فقد يصح أن نستقبل هذه الظاهرة بشيء من البرود واللامبالاة، وندعها تمر، ونترك المتكلمين فى المؤتمرات والصحف والمذكرات ليتكلموا على رسلهم، وبكلمات كبار فيها نقد وتقعيد وتخطيط، والسبب فى ذلك رؤية حيوية قدرية أقنعت المربين بأن الموفق هو من وفقه الله تعالى، بذكاء يخلقه فيه ابتداء، وبنفس زكية سوية، وشخصية قوية، أو بتيسير فى يومياته من بعد خلقه، من صحة وعافية، ومال يرفعه عن حد الفقر الموسوس، وزوجة صالحة تسره عشرتها، وأمثال ذلك، وهذه العناصر بمثل هذه التوفيقات ينفعها هذا الكلام العالى، ويصعب حصر ذوات هؤلاء وإحصائهم لنحتكر لهم الحديث، ولذلك نتكلم للجميع، فمن كان موفقاً انتفع ونفع الدعوة، وصار ضمن الجيل الجديد الوارث لنظرات المعلمين المتكلمين، المطبق لها، وازداد تنمية لفكره بما يبدع، وأما الذين يسمعون ولا يتنفعون فلسنا نبتس لسماعهم، فإنهم إما أن ينسوا ما سمعوا، وهذا خير أحوالهم وأحسنها، أو يكون منهم الفضول والتدخل فيما لا يعينهم فى سلسلة من الأذواق السيئة التى تنتهى بهم إلى خارج الدعوة، وكأن قدر الخير هو الذى جعلهم يتخلفون، ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم سماع المنتفع الذى يتلمس طريق العمل، فيثبت ويزداد رسوخاً.

وقد يصح - فى رأى آخر - أن نستقبل هذه الظاهرة بنوع من التخوف والحذر، فلا نتكلم بأصول وموازين، وغير ذلك من كبار العلم فى المجالات العامة، خوفاً أن نفسد فطرة المبتدئين، ونساعد على تأسيس الفضول، فنكون السبب فى إتلاف كثير من شباب الدعوة من حيث لا نشعر، وتكون هذه العناصر ضحية خطأ تربوى يرتكبه

القادة والمفكرون بتحديثهم هؤلاء أحاديث لا تبلغها عقولهم، فتكون فتنة لهم.

ولكل من الرأيين وجاهته وحيثياته المقنعة، ويبدو - والله أعلم أن القول النسبي في ذلك أصح، بحيث نلجأ إلى أحد الرأيين حسب الظروف المحيطة بالدعوة، إن كانت شديدة ذات محن، أو أوقات يسر، وبحسب سعة الجيل السامع الجديد، إن كان ضخمًا يحتمل النحت منه من أجل انتقاء الأشداء الأذكياء، مثل جيل الصحوة الحاضر، أم هو جيل محدود نحتاج حتى أصحاب النقص من أبنائه، وأيضاً بحسب المجموعة القيادية، إن كانت كبيرة ومتحدة ومنسجمة الفكر، أم هي صغيرة وتعيش حالة تباين في الاجتهاد، وعندئذ نحذر أن يستقوى أصحاب أحد الاجتهادات بشباب جدد يلفونهم لفاً من حيث لا يدركون، فيكون سواد واسع يؤيد اجتهادهم في الظاهر بينما هو في الحقيقة سراب فكري وتخطيطي لا يستند إلى أركان متينة ولا صورة واقعية، لبدائية مؤيدى هذا الاجتهاد وكونهم مجرد مقلدين .

والتأمل الطويل في أوصاف المرحلة الدعوية الراهنة تجعلنا نميل إلى تفضيل الرأي الأول الذى نتكلم فيه بكبار العلم حتى ولو كان ذلك فى المؤتمرات والصحف والكتب المنشورة، مع ما يخالط ذلك من سلبيات أكيدة، إذ إن نظرة الترجيح بين المصالح والمفاسد تجوز لنا ذلك من حيث المبدأ، ولا تشترط لتصرفاتنا أن تكون مجموعة مصالح محضة، وإنما نعمل بالمصلحة الراجحة وإن مازجها شيء من المضرة أقل منها، ففتنة الفضوليين حاصلة بشكل أكيد، ولكن تربية جيل جديد بأفق واسع وعلى سنن الإبداع والفهم الحضارى تشكل مصلحة أكبر. كلمات التقوى وصفات المرونة مصاعد الاجتهاد .

• ولكن نضبط هذا الانفتاح فى الكلام بشروط •

(الشرط الأول) :

أن يكون كلام الرقائق مشاعاً فى أوساط الدعاة، بحيث تميل المواعظ وأحاديث الأخلاق الإيمانية بالداعية إلى التواضع والأدب فى التعامل واحترام المقابل وعفة اللسان إذا أغرته أحاديث الأصول والقواعد بإبداء نقد أو التقدم بين يدي أساتذته .

(الشرط الثانى) :

أن يرافق ذلك سعى لشرح النظرية السياسية الإسلامية وأبعادها، لأن المعانى

الكلية والتعميمات إذا لم يفهمها الداعية جيداً وأخذها على ظاهرها فلربما يذهب في التأول بعيداً، ويميل إلى الإطلاق والأحكام الحادة فينفى بقواعد الجهاد احتمالات الهدنة، ويلغى بموازن الاستقلال مناورات التحالف، ويستعلى بأحداث العزة والصبر على إفتاء الضرورات، بينما تمده النظرية السياسية الإسلامية الشاملة بعقلانية وتوازن مع المحيط، وتجعله أحفظ للدماء والأموال والأعراض، وأحرص على تقليل الثمن الواجب عليه دفعه، وتهبه من المرونة ما يتملص به من المحاصرات، أو تنفذ به إلى حضور قسمة له فيها نصيب إذ يريد المنافسون أن تكون ضيزى.

• القضاة الفاضلون في دار الأمان •

(الشرط الثالث) :

أن تتوافر قدوات كافية في المحيط الدعوى، من قادة ومربين وعلماء، يعجلون بالرد والتقييم وإرجاع الأمور إلى نصابها الصحيح إذا اشتط مغرب فركب شذوذاً، لأن الاعتماد على الكتابة يسبب تسويفاً وتأخيراً، ولربما وصلت الصفحات بعد الخراب، بينما يؤدي الاستدراك السريع من القدوات النازلة إلى ميدان المخالطة دوره بشكل أكد، فإن لم ينفع لفظ، نفع آخر، وإن انغلق معنى، فتحه تمثيل، وإذا أشكل قياس، أظهره تعليل، نقداً، يداً بيد، هاءً بهاء، غير نسيئة ولا محال إلى مؤتمر لاحق.

(الشرط الرابع) :

أن لا يكون الزمن زمن فتنة وخلاف، فإن حرص النفوس على حظوظها يجعل بينها وبين الصواب القريب حجاباً، حيث يغلب على الأفئدة أن تطيع أهويتها، ومن الخير آنذاك أن نجمد الأفكار ونقطع لسان الأصول والكليات وكبار العلم، ليتاح مجال للتقوى أن تهمس في الأذان داعية لنفسها، ولتكون لحروف الإصلاح بين الناس قناة جارية.

• في الرواق والركن لا في الساحة •

(الشرط الخامس) :

أن لا يكون قصد المفكرين والقادة الكلام بكبار العلم في المؤتمرات والصحف عن عمد واستمرار يجعلها هي الموطن الطبيعي لهذا النوع من الكلام، أو الموطن المختار؛ وإنما يجعلون ذلك من باب الاستثناء بقصد اكتشاف وإثارة وتشجيع عناصر

قوية ذات إبداع ربما لا يصلون لها بطريق الاتصال الخاص ، وأما كثافة ما ينقلونه من كبار العلم مما علمهم الله فيجب أن يكون عبر المدارس القيادية والمجالس المنهجية المتكررة، ليتم الشرح بأوفر ما يكون البيان، وليكون الحوار المباشر المستخرج من قلب الأستاذ لما لم يكن قد زوره سلفاً من المعانى والإرشادات.

• ننتظر رشد الرهط •

(الشرط السادس) :

أن يشدد فى تعليم الفروع وصغار العلم أيام مراھقة العمل الدعوى فى بلد ما، فكل عمل يمر بمرحلة المراهقة هذه، بعد اكتمال تأسيسه وقبل توسعه وانفتاحه، وهى ذات ظواهر نفسية تعترى المجموعة تشابه إلى حد كبير طباع الفتى المراهق، من تقلب الرأى والعناد، والإغراب والجنوح إلى الخيال، وحب المغامرة وكرهية الرقابة، فإذا جاءت المباحث العالية وحقائق العلم الكبيرة فى أيام المراهقة الحركية هذه فإن المجموعة يمكن أن تنحرف بها إلى جدل طويل يصاحبه اختلاط الأصوات، أو تتجنح به إلى اجتهدات شاذة ينكرها عرف الفقهاء المجربين، ولكن يكون تداول كبار العلم بعد مرحلة المراهقة هذه، إذ تهدأ النفوس، وتميل إلى العقلانية، وتشعر بضرورة الواقعية، وعندئذ يؤتى تعليمها نتيجه المرجوة، ويساعد على تفجر الإبداع الشخصى لدى أذكاء الدعاة. ومثل هذا التعليم فى المرحلة المتقدمة يفترض أن يقوم به جيل من المتعلمين تربى على كبار العلم من قبل فى مرحلة التأسيس من خلال دورات خاصة ورعاية مكثفة.

• والمنهجية....دوماً •

(الشرط السابع) :

والالتزام بالمنهجية فى العمل والموضوعية فى الفكر تعصم من الانحراف، فإذا شاعت مجموعة من المبادئ المنهجية، والأعراف الصحيحة، والموازن الدقيقة فى مجموعة الدعاة؛ ولدت كبحاً للفهم الخاطئ، وبها نمنع تسرب التفاسير المشوشة، والتأويلات المفرطة البعيدة، وبذلك تظل الأجواء نظيفة دائماً، وتعمل القواعد المنهجية والأعراف التنظيمية كمرشحات تحول دون سلبيات الانفتاح، وخصوصاً إذا أضيف إلى ذلك إشاعة مفاهيم أدب الحوار، وأخلاق المناظرة، واعتاد عليها الدعاة من خلال الممارسة والتطبيق، مما يجعل الشطط دائماً يحصر فى أضيق الدوائر.

• كوابح... تمنع التصدر •

(الشرط الثامن) :

وكلما كانت شروط التوثيق وقواعد الانتقاء أكثر وضوحاً فى محيط الجماعة، والضوابط الحازمة أشد سيطرة : كلما قلت سلبيات تعليم كبار العلم وکلياته ؛ لأن حديث القواعد والأصول فيه بلاغة وجمال صياغة، وفيه دغدغة لعقول الشباب الأذكياء، وقد يستغل معلم متطلع إلى مراكز الصدارة هذه الخصائص فى طبيعة هذه القواعد فيستثير بها إعجاب الشباب، ويصنع له (شلة) موالية، ويجعل اللذة التى تصاحب كلماته ثمناً يدفعه لإدامة ولاء هؤلاء، غير ناظر إلى ما يسببه لهم من فتنة بحديث فوق مستواهم، حتى لكأنه فيلسوف يديم انشداد الناس إليه بغموضه وتمتماته المبهمة بينما يؤسس فقه التوثيق جملة قناعات فى نفوس الشباب تمنعهم من السير وراء من لا يملك غير اللسان وتزويق الكلام.

فهذه وأمثالها شروط يرجى أن تتقلص معها سلبيات المباحث الكلية ويجمعها أن نحتاط لأنفسنا ما استطعنا بتعلم صنعة العقلانية فإن فيها الرشاد والاتئاد، وأما العواطف فصنعة لطالما موّهت بدعة مبتدع فنشرتها أو غلّفت الإغراب فأذاعته، وكم من فكر كاسد غناه شاعر مترنم يعزف على أوتار القلوب فأصبح رائجا.

• كانت المتاهة رغم وضوح المعالم الهادية •

ويؤكد الظن فى لياقة بعض المبتدئين لسماع الأصول والقواعد مشاهدات حيوية وتاريخية تشير إلى أن فتنة بعض المبتدعة كانت بسبب فهم قاصر لبعض الفروع، وتنزيلهم لها على غير منازلها، أو قياسهم عليها قياساً مع الفارق، ويغنيا عن تتبع الشواهد لهذه الملاحظة فى التاريخ الإسلامى القديم ما شاهدناه، ومازال خبره حياً فينا من وهم التكفير لدى بعض الشباب المتحمس الصادق التوجه بلا شك، فإن ظاهر النصوص المفردة الفرعية الجزئية فى أبواب الردة والكفر هى التى تسببت فى شطحاته ومذاهبه القاصية عن مقاصد أهل السنة والجماعة، ولذلك كان رد من رد بدعتهم معتمداً على الأصول والقواعد بشكل مكثف، وجاء مثل رد الشيخ القرضاوى فى نقض التطرف مفهوماً مع أن قلمه جال فى ذروة الفقه وحام حول أعلاه، وكذلك كانت الأصول العشرين من قبل، مما يمنحنا قناعة بأن الأمر يتعدى مجرد الأسلوب التقليدى فى دراسة صغار العلم وجزئياته قبل كبارهم وکلياته، وأن

طرق التدريس ومناورات الكتابة إذا كانت ماهرة واستوعبت أطراف المعانى فإن عظام المسائل وضخامها تلين قناتها وتصبح سلسلة مفهومة، ولا تستلزم هذه القناعة ادعاء هدر العلم الجزئى تماماً والبدء بتداول الكليات دون سابق أية معرفة بجزئيات الأحكام، كما لا يستقيم الاعتراض على هذه القناعة بمثل هذا الإلزام لما لايلزم، بل قلّ أن يوجد داعية يرتاد المساجد ويسمع خطب الجمعة والمواعظ على مثل هذه الدرجة من التعرّى والتبرّى من علم الجزئيات، ولكن قناعتنا تفهم بالحسنى، وبالحدود الوسطى، وهى تأكيد لعدم الإسراف فى تدريس الجزئيات والمقدمات أكثر مما هى محاولة تجاوز وهجر لها.

• عطاء التفاعل الحضارى يعين على الاجتهاد •

وتتيسر محاولات تفهيم الكليات وأمّهات المسائل هذه الأيام بوجود ظاهرة (التفاعل الحضارى) فى المجتمعات الحديثة، فإن معظم دعاة الإسلام من جيل الصحوّة والذين من قبلهم هم من المثقفين الذين يحيون حياة عصرية فيها قراءة للصحف اليومية ومشاهدة للبرامج التلفزيونية، فوق ما حازه أكثرهم من دراسة جامعية وعليا، وهذه الدراسات والسماعات والمشاهدات لها تأثير مباشر ودور مكثف فى صياغة عقلية الداعية ومفاهيمه العامة وأذواقه كفرد فى المجتمع، بغض النظر عن صفته الدعوية، ويصبح بوجود هذه التأثيرات صاحب استعداد جيد لاستقبال علم القواعد والتنتاج والأصول وفهمه بسرعة، وبشكل قد يعجز عنه الطالب الذى يحيا حياة بدائية، أو الذى اختار له أستاذه أو اختار لنفسه العزلة اليابسة التى تنحرف بمزاجه وأذواقه، وكأن أكثر الكلام المنقول عن الفقهاء فى ضرورة التدرج فى التدريس وتقديم الجزئيات على الكليات كان يراعى من هم على هذا النمط فى البيوسة والعزلة المنتجة للسذاجة والبساطة.

إن إيماء المعادلات الرياضية لدارس الرياضيات – كمثل من أمثلة التفاعل الحضارى – هو إيماء قوى جداً، يغرس فى أصل عقل الدارس وفى لاشعوره معانى التعادل والتوازن والتساوى المطلق أو التساوى النسبى، فى معانى أخرى هى نفسها مرتكزات لكثير من القواعد الفقهية، بحيث يتلقف الداعية الرياضى هذه القواعد حين روايتها له بسهولة ويسر، نتيجة الخلفية الذهنية المساعدة التى يملكها.

والداعية الكثير النظر للأشكال الهندسية، وما فيها من تناظر أو تدرج فى الأطوال، أو

تمیز بحدود حادة، أو تجاوز للمساحات الصماء وذوات الثغرات، وأمثال ذلك، هو داعية طريقه ممهد لمروء معانى الفقه فى التدرج والاستثناء والفروق والشروط، بالتوطئة التى صنعتها الهندسة.

وداعية آخر أطال استمتاعه بجدول الألوان وما ينسجم منها وما يتنافر، ومرة عينه على موازين الجمال الفنى، هو داعية أسرع إحاطة بما فى النتائج الفقهية من منطق متجانس صحيح.

وهل إحياء معنى التكامل والتصاعد أقل منه لدى دارس الكيمياء الذى يحيط علماً بالجدول الدورى للعناصر، ويعرف خبر ما يفعله كل بروتون يضاف لنواة الذرة من خصائص جديدة؟

وهذه أمثلة فحسب لما عسى أن يسببه التفاعل الحضارى وتناول العلوم التطبيقية والفنون من توسيع للآفاق وتفتيح للأذهان يسهل معهما التفهيم الفقهى، والداعية اليوم إن لم يكن جامعياً فهو مشاهد للتلفزيون، قارئ للصحف، وحائز من مطالعته ومشاهداته لنصف العلم، ثم هو سائح فى مدن وطنه أو مدن العالم، يرى نتاج المهندسين والفنانين مع كل نظرة وإن لم تكن عامدة، فتتطبع فى لاشعوره الموازين والظواهر الحيوية المهمة لاستقرار الموازين الشرعية.

• الجمال... وغرام العقل •

وأما من لا يحيا حياة العلوم وانعزل فى قرية بين الخضرة والجبال والطير فليس هو بأقل من صاحب التفاعل الحضارى، فإن هذا ترق أحاسيسه ويحدث له ما يحدث للشعراء من إرهاف والتذاذ بالجمال، فتزكو نفسه، وتتنز، وتطمئن، حتى تكون سكينتها هى الممهدة لقواعد الفقه الكبيرة، وله مع لون وشكل كل وردة خلقها الله تعالى وتلمسها أنامله وتقبلها شفته وينطبع خيالها فى شغاف قلبه قبلة عقلية أخرى لميزان من موازين الفقه، وإطالة على الاجتهاد.

لكن المحروم هو من حرم هذا وهذا، فعاش فى عزلة عن الحضارة والمدنية، وعن آيات الله فى الآفاق، وهو من سجن نفسه بين الجدران حتى يخشوشن طبعه ويتبلد عقله، أو حبسه أستاذه فى مدرسته وجعل له من وظيفة حفظ الحواشى ما يطيل معه حنى ظهره، ومثل هذا كانت وصايا تدريس علم الجزئيات قبل الكليات.

• قلوبٌ أمم... •

ولا يظن ظان أن هذا النمط من تأثير التفاعل الحضارى أو الروح الشاعرية إنما هو وليد عصرنا الراهن، بل هو قديم ضارب فى القدم ولذلك كان علماء بغداد ودمشق والقاهرة وقرطبة وأمثالهم أوعى من علماء النواحي القصية؛ لتفاعلهم مع معطيات الحضارة الإسلامية التى كانت عامرة فى هذه العواصم، ولذلك أيضاً كان شعراء الإيمان فى تاريخ الإسلام أصحاب مهارة فى فقه النفوس ووصف خصائصها وأحوالها، لانعكاسات الحياة الجمالية التى عاشوها مع الشجر وترقق الماء، حتى أن الواحد منهم ليعدّ مؤسسة ثقافية شاملة لوحده بما يحوز من أحاسيس وخواطر يصطادها، وتأملات فى حوادث الدهور ينتبه لها، ورؤى تاريخية، ولغة ثرية، وربما يكون أحدهم مُقللاً لم يترك غير قصائد قلائل أو قطعاً متناثرة، لكنها تشكل اكتشافات لسنن الفطرة هى فى أصول الذوق وأصول حركات القلب أخوات أصول فقه المعاملات.

• ربانية التعليم قضية منهجية خطية •

ونظراً لهذه الحقائق من تأثير التفاعل الحضارى أو الجمالى فى الصياغة العقلية والنفسية للمتنفقه فإن على التربية الدعوية إذا أرادت لتدريها إتقان صنعة الاجتهاد الإبداعى أن تنحى منحى دفع الدعاة - وفق منهج متكامل - للعيش فى البيئة الحضارية العلمية، والتعامل معها، والاستلال منها مع ما يكملها من سياحة وتعرّف على خلاصة عقول وعلوم وفنون البشر عبر آلاف السنين، المعروضة فى دور الوثائق والمتاحف والأماكن المصانة، ثم فى مطالعة صفحات جمال ما خلق الله فى البرارى والبحار، أو تكثيف مطالعة الخطوط السود فى الصفحات البيض مما سطرته أنامل كل إنسان، من أدب شعري ونثرى فيه رمز وخيال وعاطفيات وانتقاء ألفاظ، أو تاريخ يكشف الحقائق ويحلل دروس الحياة ويقابل بين قبح الظلم وإشراق العدل، أو وصف يعين على تصور البعيد ومعرفة ما غاب، أو فقه لغات يطور الاشتقاق الذى فيه إلى مهارة فى قياس الأحكام.

إن قضية (تداخل) صغار العلم وكباره، أو تسلسلها، ليست هى مجرد وصية تقدم إلى المعلمين ترجوهم أن يتقنوا فن التربية وفق معيارها، فمنهم متقن وقليل إتقان، وإنما هى - فى وجهها الأهم - قضية منهجية عميقة ينبغى أن يحكمها

التخطيط التربوى بعيد المدى، وعلى المنهج الجماعى أن يراعيها ويضع جداول عملية تطبيقية لتبليغ وتفهم الثوابت الموازين والأصول والقواعد لعموم الدعاة بعد إحصائها وتصنيفها نوعياً، وكذلك الفروع ومفردات الأحكام، لكل طبقة ما يوازى حاجتها ومقدار استيعابها، ويستعين بلمسات منهجية متناسقة مع اختياراته يلزم بها المجالات الدعوية، ويطلب من اللجان والأجهزة المركزية أن تنسجم نشراتها وأساليب كتابتها مع تلك الاختيارات أيضاً، ثم بأن يتضمن المنهج ما نتمناه للداعية من ذاك الحضور فى البيئة الحضارية، والسياحة، ونيل الثقافة العامة، والعيش التأملى مع جمال الخليقة ومع آيات الله فى الآفاق العريضة، يتعنى لأقصاها، ويتغنى - مثل داود عليه السلام - مع تسيحات الجبال والطير... ثم يكون آخر دعائه أن : الحمد لله رب العالمين .

